كتَاب الصّفوة

للإمَام الأعظم زيد بن عَلي عليه السَّلام

مُنتزع من مَجمُوع كُتبه ورسائِله

جمعه وتحقيقه
إبراهيم يحيى الدّرسيّ الحمزي

تقديم
شيخ الإسلام وإمام أهل البيت الكرام
مجدالدين بن محمّد بن منصور المؤيّديّ
أيّده الله تعالى ونفع بعلومه

منشورات
مركز أهل البيت (ع) للدراسات الإسلامية
اليمن - صعدة - ت (٥١١٨١٦) ، ص ب (٩١٠٦٤)

كتاب الصفوة

بسم الله الرحمن الرحيم

[سند الكتاب]

[قال الحافظ أبو عبد الله العلوي]: حدثنا أبو الطيب علي بن محمد بن مخلد الكوفي قال: حدثنا إسماعيل بن يزيد العطار، قال: حدثنا حسين بن نصر بن مزاحم المنقري، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن الحكم بن ظهير الفزاري، قال: حدثني أبي حماد بن يعلا الثمالي، عن أبي الزناد[الموج بن علي الكوفي]، من أصحاب زيد بن علي، عن زيد بن علي عليه السلام في كتاب الصفوة.

[مقدمة في بيان اختلاف الأمة]

أما بعد:

فإني أوصيك بتقوى الله الذي خلقك ورزقك، وهو يميتك ويحييك، فهذه نعم الله التي عمّت الناس، فهي على كل عبد منهم، فأحقّ ما نظر فيه المرء المسلم وتعاهد من نفسه أمر آخرته ودينه الذي خُلِقَ له، وليس كل من وجب حق الله عليه يهتم بذلك من أمر آخرته، وإن كان يسعى لدنياه بصيراً بما يصلحها به، ويصلحه منها، فإن الله جل ثناؤه قال لقوم لا يعلمون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[الروم: ٧].

فنعوذ بالله العظيم أن يَغْفلنا عن أمر آخرتنا شغلٌ من أمر دنيانا، فإن شغلهما ليس بواحد، قال الله جل ثناؤه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ

نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(١٨)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٨ ــ ١٩].

وقد رأيتَ ما وقع الناس فيه من الإختلاف، تبرأوا من بعضهم، وتأولوا القــرآن برأيهم على أهوائهم، واعتقدت(٢) كل فرقة منهم هوى، ثم تولوا عليه، وتأولوا القرآن على رأيهم ذلك، بخلاف ما تأوله عليه غيرهم، ثم برئ بعضهم من بعض، وكلّهــم يزعم فيما يُزيّنُ لـه أنه على هدى في رأيه وتأوله، وأن مَنْ خالفه على ضلالــة أو كفر أو شرك، لابُدَّ لكل أهل هوى منهم أن يقولوا بعض ذلك.

وكل أهل هوى من أهل هذه القبلة يزعمون أنهم أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله، وأعلمهم بالكتاب الذي جاء به، وأنهم أحق الناس بكل آية ذكر اللّـه فيهـا صَفْوَةً أو حَبْوَةً(١) أو هدى لأمة محمد صلى الله عليه وآله، وكلهم يزعـم أن مـن خالفهم ــ في رأيهـم وتأويلهم ــ من أهل بيت نبيهم برؤا منه، وأن أهل بيـت نبيهم صلى الله عليه وآله لن يهتدوا إلا بمتابعتهم إياهم.

وقد عرفت أن أهل تلك الأهواء يُعرَفون وإن لم نسمهم بأسمائهم التي يُسَـمّوْن بها، وإن لم أصف قولهم الذي يقولون به، فكيف يستقيم لرجل فَقُـهَ في الديـن أن يسمي هؤلاء كلهم مؤمنين، وهم يتبرأ بعضهم من بعض، ويقتل بعضهم بعضاً أمـة واحدة على هدى وصواب.

فإن قلت: هم أمة محمد صلى الله عليه وأهل بيته وسلم؛ لأنهم كانوا مجتمعين في عهده، كما أمرهم الله عز وجل.

قلنا: نعم، فلما تفرقوا كما تفرق من كان قبلهم وقد نهوا عن التفرق صاروا أمماً كما كان من قبلهم حين تفرقوا بعد أن كانوا أمة واحدة، قال الله تبارك وتعـالى:

---

(١) ــ الحبوة: العطية من غير عوض.

(٢) في نسخة اعتقدت

(ب) و أ ومنه (ذلك)

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وليس الإخوان في الدين بالذين يتبرأ بعضهم من بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٥].

وقد بيّن الله لكم أمر من كان قبلَ أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بني إسرائيل كانوا أمّة في عهد موسى صلى الله عليه، فلمّا تفرّقوا سمّاهم الله أمَماً، فقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨]. بُلوا لأنهم تفرقوا بعد موسى، يزعُمون كلُّهم أنهم متّبعون لموسى مصدقون بالتّوراة ويَستقبلون قِبْلة واحدة ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾[آل عمران: ١١٣] فَسمّاهم الله أهلَ الكتاب، ثم سمى أهلَ الحقّ منهم أمةً قائمة، ثم وصَفَها، فقال: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ(١١٣)يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٣ ـــ ١١٤].

فكُل فرقة من أهل هذه القِبْلة نصبوا أدياناً يتأوّلون عليها ويتبرأون ممن خالفهم، فهم أمّةٌ على هُدًى كانوا أم على ضَلالة، قال الله جَلّ جلاله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل: ١٢٠]. فسمّاه الله حين كان على دين لم يكن عليه أحَدٌ غيره: أمّةً. قال الله جل ثناؤه لقوم اتّبعوا ضلالة آبائهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣].

وكذلك تفرّقت هذه الأمّةُ بَعْدَ نبيها صلى الله عليه وآله وسلم، أمَماً، كما

تَفرَّقت بنو إسرائيل بعــد مُوسى أمماً، وقد قال اللّه جل ثناؤه: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَـى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[الأعراف: ١٥٩].

فلم يُخْرِج اللّه منهم الحقَ كلهم بَعْدَ أَنْ جَعَله فيهم، ثم لم يُسمِّهم حين تفرقـوا: (أُمَّةً واحدة) فكذلك قال اللّه تعالى لهذه الأمة: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِـالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[الأعراف: ١٨١]، وقال:﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَـى الْخَـيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَـنِ الْمُنْكَـرِ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾[آل عمران:١٠٤]، فإن استَطَعْتَ أن تَلْتَمِسَ تلك الأمةَ من أمة محمَّد صلى اللّه عليه وآله إذا تَفَرَّقت فَافْعَل ، فواللّه مـا هي إلا التي استقامت على الأمر الذي تركها عليـه نبيُّها صلى اللّه عليه وآله وسلم.

[إنكار التفضيل سبب الاختلاف]

واعلم أنَّما أصاب الناسَ من الفتَن والاختلاف، وشُبِّهت[١] عليهم الأمور إلا من قِبَل ما أذكر لك ، فأحسن النَّظر في كتابي هذا، واعلم أنك لن تستشفيَ بأوَّل قولي حتى تَبْلغ آخره إن شاء اللّه.

وذلك أنَّهم لم يروا لأهل بَيْت نبيِّهم صلى اللّه عليه فضلاً عليهم ـــ يَعْتَرفون لهم به ـــ في قَرَابَتِهم مـــن النَّبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، ولا علماً بالكتاب ينتهـــون إلى شيء من قولهم فيه، فلما جاز لهم إنكار فضلهم، جاز ذلك لبعضهم على بعض.

وَسُمِّيَ كلُّ من استقبل القبلة وقرأ القرآن ـــ من مؤمن أو مُنافق، أو أعْرَابـــيٍّ أو مهَاجر، أو أعجمي أو عربي ـــ مـــن أمة محمد صلى اللّه عليه وعلى أهـــل بيتـــه وسلم، وجاز لهم ـــ فيما بينهم إذْ لم يروا لأهل بَيْت نبيهم فضلاً عليهم ـــ أن يتأولَ كلُّ مَنْ قرأ القرآن) برأيه، ثمَّ يقول هو ومن تابعه على رأيه: نحن أعلم الناس بالقرآن

(١) - شبهت: أشكلت واختلطت.

وأهداهم فيه. فخالفهم ضرباؤهم ــ من الناس في رأيهم وتأولهم ــ وأكفاؤهم في السنة، وقد قرأوا القرآن مثل قراءتهم، وأقروا من تصديق النبي صلى الله عليه وآله بمثل ما أقروا به، فمن هنالك اختلفوا ولا يرجع بعضهم إلى بعض، فانظر فيما أصف لك.

[سبيل النجاة عند الإختلاف]

فلعمري إنا لنعلم أن أعلم الناس أعلمهم بالقرآن، وأن أهدى الناس لَمَن عمل به المتّبع لما فيه، ولقد قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٩].

ولكن انظر ــ إذا تفرق الناس وكلهم يُقرُّ بالكتاب وبالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبعضهم ينتحل الهدى دون بعض ــ هل في كتاب الله عز وجل تفضيل لبعض أهل هذه القبلة على بعض؟ ينبغي أن تعرف أهل ذلك التفضيل في كتاب الله جل ثناؤه، وتُفَضِّلهم بما فضلهم الله عز وجل، وتكون بهم مقتدياً.

فإن أحببت أن تعلم ذلك إن شاء الله فانظر في القرآن هل بعث الله نبياً إلا سمى له أهلاً؟ وهل أنزل كتاباً إلا وقد سمى لذلك الكتاب أهلاً في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم. ثم قَصَّ عليكم أعمال من نجا منهم، وأعمال من هلك منهم، وأخبركم مَنْ كان أهلَ صفوته من الأمم الذين نجوا مع أنبيائهم، ومن كان في بقية أهل الحق بعد الأنبياء عليهم السلام.

فإن وجدتَ في الكتاب أن أهل الأنبياء ومن اتبعهم نجوا مع أنبيائهم، وأن بقية الحق من الأمم كانوا ذرية الأنبياء؛ فاعلم أن هذه الأمة لن تنجوَ إلا بمثل ما نجا به مَنْ كان قبلهم، حين اختلفوا في دينهم، وقتل بعضهم بعضاً على دينهم.

ثم انظر هل تجد لنبيكم أهلاً وذُرِّيَّة سماهم الله في كتابه كما سماهم للأنبياء قبله؟

وهل كان أهل الأنبياء وذرياتهم نجوا هم ومن اتبعهم، أو هلكوا ونجا غيرهم؟ فإن وجدتهم هم أهل النجاة مع الأنبياء، وهم بقية معادن الحق بعدهم، فاعلم أن هذه الأمة لا تنجو إلا بمثل ما نجا به الأمم من قبلهم.

وإنا لنرجو من اللّه جل ثناؤه أن يجعل لنا من الفضل بقرابته صلى اللّه عليه وآله وسلم، على أهل الأنبياء كفضل ما جعل اللّه لنبينا صلى اللّه عليه وآله عليهم؛ لأن اللّه قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠]، ولعلك إن شاء اللّه تعرف في آخر ما في هذا تفسير ما أجملت لك في أوله وتعرف بذلك من الكتاب ما يهدي ولا قوة إلا باللّه.

[التفضيل اختيار من الله تعالى]

فمن زعم أن أهل هذه القبلة كلهم أهل صفوة وحبوة وخيرة ليس بينهم تفاضل، فإنا لا نقول ذلك، لأنه ليس كل من اتبع الأنبياء سماهم اللّه أهل صفوة وحبوة وخيرة، وقد سمى اللّه جلّ ثناؤه أهل صفوة وحبوة وخيرة فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾[القصص: ٦٨] وليس كل من خلق اللّه خيرة ولكن يختار منهم من يشاء، فقال: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[القصص: ٦٨]، وقال: ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل: ٥٩]، فليس كل العباد اصطفى اللّه، ولكن اللّه يصطفي منهم من يشاء وقال عز وجل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. وإنما فضلت نعم اللّه بين الناس عن غير حول أحد منهم ولا قوة، إلا مناً من اللّه ونعمة، وفضلاً يختص به من يشاء.

فكنا أهل البيت ممن اختصه اللّه بنعمته وفضله، حين بعث منّا نبيه صلى اللّه عليه

وآله وأنزل عليه كتابه، وقد عَرَفْتَ أن الكتاب يتأوله جهال من الناس يزعمون أنه ليس لأهل هذه القبلة فضل، يَفْضُل به على بعض، من ذلك قول الله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣]، فصدق الله وبلّغ رسوله، وفي هذه الآية حجة لآل محمد صلى الله عليه وآله وبيان فضلهم على الناس.

ما فضل نبيّنا نفسه ولكن الله فضله، وجعل لذريته وقومه الفضل به على الناس، كما جعل ذلك لمن كان قبله من الأنبياء، وجعل أكرم كلّ قبيلة وشعوب من الناسْ أتقاهم، كما قال الله جل ثناؤه.

[إثبات التفضيل]

وقد فضل الله القبائل بعضها على بعض، فجعل التفاضل بين الأنبياء وسائر الناس فقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[الإسراء: ٥٥]، وقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٢١]، وقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[الروم: ٢٢]، فإذا اختلف شيء من خلق الله تفاضل، فللرجل الفارسي على الرجل الزنجي فضل ــ وإن أسلما جميعاً ــ في نسبهما وألوانهما بمعرفة الناس، وللسان العرب فضل على لسان العجم يعرفه الناس ، لأنه لا يدخل في هذا الدين أحد من قبائل العجم إلا ترك لسان قومه وتكلم بلسان العرب.

هذا لتعرف إن شاء اللّه أن اللّه قد فضل القبائل بعضها على بعض في ألوانها وألسنتها، وتسخير اللّه بعضها لبعض.

ثم جعل اللّه جل ثناؤه — أفضل القبائل حين فضل بينها في النعم — جعل لبني إسرائيل — وهم قبيلة وبنو أب — فضلاً على قبائل بني آدم في زمانهم الذي كانوا فيه، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الجاثية: ١٦]، وقال موسى عليه السلام لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة: ٢٠]، فكانت بنو إسرائيل وهم قبيلة واحدة. وبنو أب مفضلين على قبائل بني آدم في الزمن الذي كانوا فيه، بنعمة اللّه عليهم إذ جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكاً أهل كتاب، وأكرمُ بني إسرائيل أتقاهم، كما قال اللّه تعالى.

وإنما فَسَّرت لك تأول الناس هذه الآية لتعلم أن اللّه جعل لذرية محمد صلى اللّه ولقومه الفضل به، حين بعث اللّه منها النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأنزل الكتاب عليه، وأكرمهم عند اللّه أتقاهم كما قال اللّه عز وجل. وقال لهم: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣].

فكان الناس في الخلق حين خلق اللّه السموات والأرض وما ذرأ فيهما أمة من خلقه ، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى

بَطْنِه وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥]، وكل شيء فيه روح ــ نظر الناس إليه مما في البر ــ فإنما هو دابة أو طائر، فما تحرك وطار فهو الطائر، وما تحرك ولم يطر فهو دابة، وليس أمة من الدواب تمشي على رجلين غير الناس، قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤]، ثم قال: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(٦)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾[الانفطار: ٦ ــ ٧]حقوّمه على رجلين، ثم قال: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار: ٨].

وكان فيما بيّن الله لكم أنه مسخ أناساً فجعلهم في صور الناس فجعلهم قردة وخنازير، فتبارك الله رب العالمين.

وسائر الدواب تمشي ــ كما قال الله تبارك اسمه ــ على بطونها وعلى أربع وعلى أكثر من ذلك، يخلق الله ما يشاء، ما تعلمون وما لاتعلمون، وليس هذا بهذا، ولكنها أسماء مختلفة، وخلق يعرف بعضه بغير بعض، والدواب كلها كذلك، ليس الإبل بالبقر ولا الغنم بالحمير ولا البغال بالخيل، فهي أمم كما قال الله عز وجل، وغيرها من الأمم الدواب والسباع كذلك.

فكان الناس في الخلق أمة من هذه الأمم فَضّلهم الله على غيرهم من خلقه، وسخر لهم ما شاء من خلقه فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٧٠]، فجعلهم الله يركبون ظهوراً مما خلق ويشربون من ألبانها ويأكلون لحمها، وقال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[الجاثية: ١٣]، فهذه نعمة وفضيلة(١) جعل الله السماء سقفاً محفوظاً، وسخر لكم ما فيها، وجعل فيها منافع لكم والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر، وجعل الأرض فراشاً، وجعل فيها منافع لكم وأنهارها وأشجارها وفجاجها وسبلها وأكنانها.

(١) في طرة: نعمة وفضيلة. نخ٢

[اصطفاء الله لأنبيائه وبقاء الحق في ذراريهم]

ثم افترض عليكم عبادته وعرّفكم نعمته وبعث إليكم أنبيائه وأنزل عليكم كتابه، فيه أمره ونهيه، وما وعدكم عليه من الجنّة من طاعته، وما حذّركم عليه من النار في معصيته، فقال: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٢]، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٥].

وكان مما بيّن الله لكم أن جعل الأنبياء بعضهم ذريةً لبعض، واصطفاهم بذلك على الناس وأكرمهم واختارهم واجتباهم إليه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٣٣ ــ ٣٤]، ثم قال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى: ١٣].

شرّع لنبيكم صلى الله عليه وآله وسلم ما شرّع لهم، وأوصاكم بما أوصاهم، ونهاكم عن التفرّق كما نهاهم.

فبعث الله نوحاً وبينه وبين آدم من القرون ما شاء الله على دين آدم، واصطفاه كما اصطفى آدم، ثم مَنّ الله على نوح فنجاه وأهله إلا مَنْ خالَفَه، ونجا من اتبعه من المؤمنين، وليس كلُ من كان مع نوح في السفينة أهلَه، فقال: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود: ٤٠].

ثم مَنّ على نوح وأكرمه أن جعل ذُرِّيَّتَهُ هم الباقين، وليس كل الباقين ذرية نوح، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[الإسراء: ٣]، ثم قال: ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ

﴿أَلِيمٌ﴾[هود: ٤٨]، فجعل أهل بقية الحق والبركات في الأمم — التي يعتصم بها الناس بعد نوح — من ذريته، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦] وقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[هود: ٧٣]. فهذه البركة التي جعلها الله في ذريتهما.

وإنما أنبأكم الله جل ثناؤه بأنه جعل الكتابَ حيث جَعَلَ النُّبوة، فقال لنبيكم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[الرعد: ٤٣].

فليس كتابٌ إلا وله أهلٌ هم أعلم الناس به، ضل منهم من ضل واهتدى من اهتدى.

ثم بعث الله تبارك وتعالى إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم، وبينه وبين نوح صلى الله عليه ماشاء الله من القرون، فجعل الله بقية الحق في ذريته وشيعته، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(٧٥)وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات : ٧٥ - ٧٦]، ثم قال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾[الصافات:٨٣]، ثم اصطفاه الله كما اصطفى نوحاً.

ثم أكرم الله إبراهيم إذا جعل بقية الحق في أهله فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(٢٦)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي(٢٧)وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف: ٢٦ — ٢٨]، والعقبُ: الذرية، فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف: ٢٨]، فلم يرجع أحد من الأمم إلى الحق بعد إبراهيم صلى الله عليه — حين ضلوا بعد أنبيائهم — إلا بذرية إبراهيم، هي كلمة الحق التي جعلها الله باقية في عقبة.

وقال لنبيكم: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ

اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الفتح: ٢٦] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ(٢٦)يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم: ٢٤ ــ ٢٧]، وقال عز وجل: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾[الفتح: ٢٩]، فقد ضرب اللّه لكم الأمثال في التوراة والإنجيل وفي كتابكم، فكانت ذرية إبراهيم إسماعيل وإسحاق.

فأما بنو إسحاق فقد قص اللّه عليكم نبأهم لتتعظوا بذكرهم، وهما هاتان الطائفتان(١) اللتان ذكر اللّه في الكتاب فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾[الأنعام: ١٥٥ ــ ١٥٦].

فأما بنو إسماعيل فهم أميون لم يكن لهم كتابٌ، ولم يُبْعَثْ فيهم غيرُ محمدٍ صلى اللّه عليه وآله وسلم، فبعثه اللّه على ملة إبراهيم صلى اللّه عليه ونَسَبَهُ إلى إبراهيم وجعله أولى الناس به حين بعثه، وبينه وبين إبراهيم ما شاء اللّه من القرون، فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. جعله اللّه تبارك وتعالى خاتم النبيين وأرسله إلى الناس كافة، فليس كل من آمن بمحمد صلى اللّه عليه وآله وسلم من بني إسماعيل، كما ليس كل من اتبع موسى وعيسى عليهما السلام من بني إسحاق صلى اللّه عليه.

(١) ــ يعني بالطائفتين: اليهود والنصارى.

وإنما وصَفْتُ لك هذا لتعرف أنه لا يستقيم لمن خالف آل محمد صلى اللّه عليه وعلى أهل بيته وسلم من أهل هذه القبلة أن يقول: نحن أهل صفوة اللّه ــ حين ذكرها في الكتاب ــ دون آل محمد صلى اللّه عليه وعلى أهل بيته وسلم، ولابد لهم إن خالفوا آل محمد صلى اللّه عليه وعلى أهل بيته وسلم أن يكونوا أهل هذه الآية ــ التي ذكرها الله فتنال الصفوة ــ دون آل محمد، أو يكون آل محمد أهلها دونهم.

فافهم ما ذكرت لك فإن اللّه تبارك وتعالى قال لنبيه صلى اللّه عليه وعلى أهل بيته وسلم: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾[الأنبياء: ٢٤].

فواللّه إن دين اللّه لَدِينُه الذي بعث به النبي صلى اللّه عليه وعلى أهل بيته وسلم، وكان المسلمون عليه بعد نبيهم صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم قبل تَفَرُّقِهم، فماذا شُبِّه عليكم أيها الناس؟ فواللّه إن الحلال لَحلالٌ إلى يوم القيامة، وإن الحرام لحرام إلى يوم القيامة، وإن فريضته لواحدة، وإن حدوده لواحدة، وإن أحكامه فيه لواحدة، وقد قال اللّه عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢]، وإن معصية النبي صلى اللّه عليه ميتاً كمعصيته حياً.

قال اللّه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١١٦]، وما أهل بيت نبيكم بالمترفين فالله المستعان.

فانظروا من بقية أهل الحق من القرون، فإن(١) اللّه تبارك وتعالى قال لنوح صلى اللّه عليه وسلم: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[الصافات: ٧٧]. وقال لبني إسرائيل:

---

(١) ــ في (ط): وأن.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾[البقرة: ٢٤٨].

فالتمسوا الفضل من قريش حيث جعله اللّه، فبقية الحق منهم، فإن اللّه جل ثناؤه يقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام: ١٢٤]، فإن كان اللّه وهب نبيئنا وجعله خاتم النبيين، فإن فيكم أهله وذُرِّيَّتَهُ معتصمين بكتاب اللّه.

وقد وعد اللّه المؤمنين والرسول النَّصر والنجاة، قال اللّه عز وجل(١): ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر: ٥١].

ثم قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:١٠٣].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧].

وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(١٧٢)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١ ــ ١٧٣].

وقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) ــ كذا في (أ)، وفي بقية النسخ: وقد قال الله عز وجل.

[المائدة:٥٤].

ثم قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠]. وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: ٢٥].

وقال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤)سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(٥)وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[محمد: ٤ـ٦].

فوعد الله المؤمنين النّصر والهدى على الجهاد، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]. وقال: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن: ١١].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾[الرعد: ٣٦].

وقال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[الزخرف: ٤٤].

ثم سمى لنبيكم صلى الله عليه وآله وسلم أهلاً حيث سمى للذين نبأهم أهلا، قال الله عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢]، فهم أهله كما جعل للأنبياء أهلا، فاتّبعوه وأطاعوه فيما اختصّهم به من المواعظ على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال عز وجل: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣] ، وقال : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[الإسراء: ٢٦]، فنحن ذوو قرباه دون الناس.

[آية التطهير والمراد بأهل البيت فيها وخروج الزوجات عنهم]

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فقد أعلم أن جُهالاً من الناس يزعمون أن اللّه إنما أراد بهذه الآية أزواج النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم خاصة، فانظر في القرآن فإن كان إنما جعل أهل الأنبياء أزواجهم في الكتاب الذي أنزله عليهم فصدقوه، وإن كان سَمّى للأنبياء أهلاً سوى أزواجهم فما هذه الجهالة بأمر اللّه؟ أرأيت نوحاً ولوطاً عليهما السلام. حيث أمرا بترك امرأتيهما، أليس قد كان أهلُهما سواهما؟ قال عز وجل لنوح: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾[هود: ٤٠].

وقال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٣)إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(١٣٤)إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾[الصافات: ١٣٣ ــ ١٣٥].

وقال ليوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ﴾ [يوسف:٦]، أفترى أن آل يعقوب إلا النساء؟ ثم قال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[الصافات: ١٣٠].

وقال لإسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾[مريم: ٥٥].

وقال تعالى ــ في الصفوة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٣٣].

وقال:﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[هود:٧٣].
أفترى أن الله تبارك وتعالى أراد بهذه الصفوة، وما ذكر من أهل الأنبياء نساءهم، أم رأيت بموسى صلى الله عليه حين يقول: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾[طه:٢٩] أهله الذي سأل منهم الوزير أزواجه؟!

أرأيت إذ يقول لقوم صالح صلى الله عليه: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[النمل: ٤٩]؟ أليس ترى أن له أهلاً وأن له ولياً دون قومه؟

وقال زكريا صلى الله عليه: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا(٥)يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم: ٥ ـــ ٦]، أفلا ترى أن للأنبياء أولياء دون قومهم ؟ أفلا ترى أن الأنبياء قَبْلَ محمد صلى الله عليه وآله وسلم أوتوا أهلا فما أهل الأنبياء بأعدائهم، وما أعداء الأنبياء بأهلهم.

فانظروا في أهل نبيكم ومن كان أهل العداوة من قومه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:١١٢]، أرأيت حيث يقول عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[الأحزاب: ٢٨].

وقال عز وجل: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[التحريم: ٥]، أرأيت لو طلّقهنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ما كان له أهل بيت من أهله وذريته؟ سبحان الله العظيم!! إنما يقول جلّ ثناؤه لهنّ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٤].

وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ

﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[الأحزاب: ٥٣]، إنما يريد اللّه جل ثناؤه بهـــؤلاء الآيـــات في البيوت، والأذن المسكن من البيوت.

وأما الآية التي ذكر اللّه فيها التطهير فإنما هو بيت النبي صلى اللّه عليه أهلـه وذريته، وإنما قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٣] ولم يقل إنما يريد اللّه ليذهب عنكنّ الرّجس.

ثم قال: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾[الأحـــزاب: ٣٢] فلم يُفَضِّلهن على أحد من النساء بآبائهن، ولا بأمهاتهن، ولا بعشيرتهن، ولكن إنما جعل اللّه الفضل لهن لمكانتهن من النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، فكيف لا يكـــون لأهل بيته الفضـــل على بيوت المسلمين، ولورثته على ورثتهم، ورسول اللّه صلـــى اللّه عليه وآله وسلم هو جدنا، وابن عمه المهاجر معه أبونا، وابنته أمنـــا، وزوجـــه أفضل أزواجه جدتنا، فمن أهل الأنبياء إلا من نزل بمنزلتنا من نبينا صلى اللّه عليـــه وآله، واللّه المستعان.

[الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ وأبناؤهما ذرية رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وآله وسلم ـ]

وقال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد: ٣٨] وكذلك فعل اللّه به صلى اللّه عليه وآله وسلم جعل له أزواجاً وذرية، ثم بين ذلك في الكتاب حين أمره أن يُباهِلَ النصارى في عيسى بـــن مريـــم صلى اللّه عليه، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٥٩)الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٦٠)فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمـــران: ٥٩-

٦١] ، فلم يكن تبارك وتعالى يأمره أن يدعو أبناءه وليس له أبناء، فكان ابناه يومئذ الحسن والحسين عليهما السلام، لم يكن له ابن يومئذ غيرهما.

وقال الله عز وجل وهو يذكر نعمته على إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٨٤)وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥]، فنسب الله عز وجل عيسى إلى إبراهيم في الكتاب، وجعله من ذريته، ثم قال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٨٦]، ثم قال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ٨٧]، فذكر الله جل ثناؤه أهل الخيرة من أبناء الأنبياء وإخوانهم، ثم قال: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣]، فجعل الله إسماعيل وهو عم يعقوب من آبائهم، هذا لتعرف منزل أهل الأرحام في كتاب الله، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١].

وقال في صاحب موسى صلى الله عليه حين أقام الجدار: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف: ٨٢]، فكان تأويل ذلك مما لم يعلم موسى، حفظ الله الغلامين بصلاح أبيهما، فمن أحق أن يرجوا الحفظ من الله بصلاح من مضى من آبائه من ذرية نبيكم؟!

فنحن والله ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، مُتَّبَعُونَ له، معتصمون بالكتاب الذي جاء به ، نُحَرِّمُ حَرَامَهُ ونُحِلُّ حلاله، ونُصَدِّقُ به، ونعلم منه أفضل مما يعلم الناس من تلاوته، ونؤمن من تأويله بما يعلم الناس منه وما جهلوا، لم يَدَّع الناس عندنا مظلمة من أموالهم التي قتل بعضهم بعضاً عليها، و لم نجاهدهم إلا على أنْ يضعوها مواضعها، ويأخذوها بحقها، ويعطوها أهلها الذين سماهم الله لهم؛ فعلى ذلك قَاتَلْنَا مَنْ قَاتَلْنَا منهم، واحتججنا عليهم بأنهم لايتبعونا إذا دعوناهم، ولا يهتدون بغيرنا إذا تركناهم، ولا يزدادون في ذات بينهم إلا بغياً وتفرقاً.

[الذي يجب على المسلمين اتباعه من أهل البيت (ع)]

فإن قلت: إن من آل محمد من ينبغي للناس أن يتفرقوا عنه، فإن فيهم بعض منا يكره لهم.

فلعمري إن فيهم لما في الناس من الفضل والذنوب والدين، ولكن ليس ذلك في جُلِّ القوم إنما هو في خَوَاصِّهم، فمن ظهر عليه عيبه عُوقب به من أتاه، وإن سُتِرَ عليه عيبه فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء غفر له، ما لم يَدْعُ الناس إلى ضلالة و لم يضل بهم عن حق، و لم يتأول شيئاً بعلمه في الإسلام بدعةً أو سنةً باطلٍ يتّبعه الناس عليها، ومن اتبعه عليها ضل هو ومن اتبعه كهيئة من عمل بذلك فَضَلَّ وأَضَلَّ.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[النحل: ٢٥].

وإني إنما قلت لك هذا كي لا تزهد في حق آل محمد صلى الله عليه وسلم ترى في بعضهم عيوباً، ولكن أحق من وجب على الناس الإقبال إليه من آل محمد صلى الله عليه من التمنه المسلمون على نفسه وغيبه، ثم رضوا فهمه وعلمه بكتاب الله

وتبيين الحق فيه، وسنة نبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فهدى اللّه عز وجل به الناس إلى ذلك، وأهداهم في الموثوق في حديثه وفهمه وفضله، فوصفه الحق لما يُعَرِّف المسلمين من معالم دينهم، ثم الإستقامة لهم عليه، ليس له أن يجوز بهم عن الحق وليس لهم أن يبتغوا غيره ما استقام لهم، ولم يكن آل محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم والحمد للّه — على حال منذ فارقهم نبيهم صلى اللّه عليه وآله وسلم — إلا وفيهم رضاً عند من عرفه من المسلمين، في أنواع الخير التي يَفْضُل بها الناس، عَرَفَ ذلك مِنْ حقهم مَنْ عَرَفَه وأنكره من أنكره.

[أسباب التفضيل]

ولعمري ماكُل قريش — وإن كانوا قوم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم — أهل فضل، لقد قال اللّه للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾[الأنعام: ٦٦]، فإن منهم لأوّل من كَذّبه، وإن منهم لأول من صَدّقه، فما جعل اللّه حقهم على الناس واحداً، حَقُّ من صدقه كحق من كذبه، فما عظمت نعمة اللّه على أحد من خلقه إلا زاد حق اللّه عليه تعظيماً.

ومنْ أداء حق اللّه وشكر نعمته العمل بطاعته والإجتناب لمعاصيه؛ فمن أَخَذَ يُفَضِّل نَفْسَهُ على الناس بغير نعمة من اللّه سبقت إليه أوسلفت، فهو حين يعرف الناس أنه عاص للّه لاحَقَّ له ولا نعمة، غير إنما الحق لمن شكر النعمة وعمل بالطّاعة التي إنما كانت قريش ابتليت بما ولوا من الناس، وابتلي الناس بهم، وسلطانهم عليهم، وملكتهم إياهم، وانتحالهم هذا الأمر دون الناس وأهلِ والقيام به عليهم.

ما كل من قرأ القرآن من قريش يعلمه ولا يعدل فيه، لقد قال جل ثناؤه لبني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، ثم قال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ

به وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء: ١٢٣].

وقال: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(١٢)لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٢ ــ ١٣]، فليس يكون الإيمان به الكلام، والعمل بغيره، ولقد قال الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ٤٧].

وكان مما جاء به من سنة الأولين أن قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] وما يحملها إلا القائم بها. قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾[المائدة: ٦٨].

وقال لهذه الأمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(٢٠٤)وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ(٢٠٥)وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٦)وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[البقرة:٢٠٤ ــ ٢٠٧]. وإنما الفساد في الأرض: العمل بمعصية الله؛ قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة: ٣٠] وإنما هلاك الحرث هلاك الدين، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]، وحرث الآخرة: العمل الذي يدين اللهَ به عبادُه من الخير؛ وإنما هلاك النَّسْلِ: فمن نَسْلِ الناس أن يحملوا غير دين الحق. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾[السجدة: ٧ -٨].

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥].

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء: ١٥٥].

فهما سبيلان كما قال الله عز وجل: ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ(٥٥)﴾ [الأنعام] وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام ١٥٣]. ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم: ٣٥ ــ ٣٦].

وقال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾[السجدة: ١٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[غافر: ٥٨].

وقال عز من قائل: ﴿الم(١)أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣)أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[العنكبوت: ١ــ ٤].

وقد بين الله عز وجل لكم ما أمر به نبيكم صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم، وما أمركم أن تعتصموا به بعده، فقال عز وجل: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ

إِلَيْكَ﴾[الزخرف: ٤٣]، وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[الأعراف: ١٧٠].

وقال عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥].

وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].

ثم قال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١] فهذا عهد الله إليكم.

وقال عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ؛ فوالله لئن ترك الناس أمر الله، فالله لا يدع أمره.

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا(١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾[محمد: ١٠ ــ ١١].

ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(١٩)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[فاطر:١٦ ــ ١٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[النور: ٣٤].

فانظروا في ذكر من كان قبلكم، وما جاء من مثلهم، هل يستقيم لأحد ــ اتبــع الكتاب من اليهود والنصارى من قِبَل العرب والعجم ــ أن يقول نحن صفوة اللّـــه دون آل عمران؟ أو يقول نحن ورثنا الكتاب دونهم، ونحن أعلم بالكتاب منهم؟ فمن قال ذلك منهم فإن القرآن يكذبه، قال اللّه جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُــدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ(٥٣)هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[غافر: ٥٣ ــــ ٥٤]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ(٢٣) وَجَعَلْنَـــا مِنْهُـــمْ أَئِمَّـــةً يَهْـــدُونَ بِأَمْرِنَـــا﴾ [السجدة:٢٣ــ٢٤]، هذا ذكر بني إسرائيل في كتابهم.

وبين لكم أنه اصطفى آل عمران، وأنه أورثهم الكتاب من بعد موسى، وأنه جعل منهم أئمة يهدون بأمره.

ثم بين لكم في كتابه أنه اصطفى آل إبراهيم كما اصطفى آل عمران، ثم قـــال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[فاطر: ٣٢].

[آل محمد أولى بالنبي (ص) من غيرهم من الناس]

فإن زعم من خالف آل محمد صلى اللّه عليه من أهل هذه القبلة أنهم هم الذيـــن أورثوا الكتاب ، وأنهم هم أهل الصفوة، وإنما ذكر اللّه عز وجل آل إبراهيم دون آل محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، [فهم أولى بآل إبراهيم](١) أم آل محمد صلـــى الله عليه وعليهم وســـلم أولى بآل إبراهيم؟ وقال جل ثناؤه: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيــمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٥٤]، ثم ذكر ذلك في آي من الكتاب ستمر بهن وتعرف إن شاء اللّه أن لآل محمد صلى اللّه عليه منزلة في الصفوة والحبوة ليست لغيرهم، مع أنا نعرف أن اللّه عز وجل قد جعل كُلَّ من تولى قوماً في

(١) ــ ما بين القوسين بياض في الأصل وهو زيادة لتوضيح المعنى.

الدين معهم، وإن لم تكن النسبة واحدة، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة: ٥١].

ثم قال عز وجل مثل ذلك في هذه الأمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٤]، ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٥]، صدق الله تبارك وتعالى وبلّغت رسله صلى الله عليهم أجمعين، فبنوا إسرائيل بعضهم أولى ببعض في الأرحام، وبنوا إسماعيل بعضهم أولى ببعض في الرحم، إذ كانت لهم مع الرحم الولاية في الدين، فنحن أولى الناس بمحمد وإبراهيم صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم في الرحم، وأولاهم في التصديق به في الدين، جعل الله عز وجل لذرية محمد — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وأهل بيته ومن هاجر معهم من قريش الفضل على غيرهم من المسلمين وجعل لهم خواص الكتاب، قال الله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٧٧)وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ يقول: في سبيل الله حق جهاده، ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾[الحج: ٧٧]، وإنما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، في دعوة إبراهيم وإسماعيل ، ذلك قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧)رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ — ١٢٨] فهذا من دعاء إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما من قبل

محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم سماها في الكتاب الذي بعث به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]، ثم قال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[البقرة: ١٢٩]، فهم ذرية إبراهيم وإسماعيل وهم دعوتهما قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم تكن الدعوة إلا لذرية إسماعيل، قال الله عز وجل في قول إبراهيم صلى الله عليه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم: ٣٧]، فهم الذين لزموا الحرم من ذرية إبراهيم حتى انتهت إليهم دعوته، فبعث الله تبارك وتعالى منهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجعل منهم أمة مسلمة، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل، قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾[القلم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٥].

ثم بعث الله جل ثناؤه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلسان قومه وجعله رسولاً إلى من ليس على لسان قومه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨]. وكانت الأمة المسلمة من ذكرهم — في دعوة إبراهيم وإسماعيل — من اتبع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قريش وهاجر معه وتعلموا الكتاب والحكمة وبلغوا القرآن منه بلسانه وألسنتهم.

وكان لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أهلاً وذريةً دون قومه، فآمنوا به وصدّقوه

واتبعوه، وذكر الله الأنصار بنصرهم واتباعهم، وجعل باب الهجرة والإيمان إليهم وإلى بلدهم.

وقال الله عز وجل في الكتاب ـــ حين فرض الفرائض وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقسمة ـــ قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الحشر: ٧].

ثم قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحشر:٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩]، فكانت هذه الأنصار، فجعل الله تبارك وتعالى النبوة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولقرابته الفضل على الناس والمهاجرين والأنصار، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠]، فليس يكون أحد متابعاً لهم بإحسان حتى يعرف فضل مَنْ فضله الله عليه، وأنه إنما كان لهم مثل تابع لهم، فليس لأحد ـــ دَخَلَ في الإسلام ـــ أن يُعَلِّمهم وهم علموا قبله، ولا أن يرى له مثل حقهم، وقد دخلوا في الإسلام طوعاً بحبوة من الله عز وجل احتباهم، فلهم عليه أثرة، وليس لأبناء المهاجرين من

قريش تفاخر بفضل آبائهم على الناس، ولا تعترف لذرية النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بالفضل عليهم.

[بيان أهل الحق عند الإختلاف]

فإن قلت: قد اختلفوا. فقد صدقت، وإنما أنبأكم الله فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ ــ يقول في الكتاب ــ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]، فانظر حين اختلفوا أين كان أهل الحق؟ فإنه لا يشكّل أهل الحق.

وإن بني إسرائيل حين اختلفوا سماهم الله أهل الكتاب، ثم لم يخرج الحق منهم بل جعله فيهم، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ(٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٣ ــ ٢٤].

وكان من مَنّ الله وفضله على آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن الله جل ثناؤه جعل له من قومه وعشيرته الأقربين قوماً أقربهم إليه، فأمره أن يُنذرهم فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]. فاستجاب له أقرب الناس رحماً من: عم، وابن عم أخٍ لأب وأم، ولم يستجب له آخرون من مثل منزلتهم في الرحم، فقال الله عز وجل: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]. فلم يجعل الله ولاية أهل الأرحام إلا على الإيمان والهجرة، قال الله عز وجل في آية أخرى في المهاجرين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾[الأنفال: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا

إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[الأحزاب: ٦].

وكان من مَنّ الله تبارك اسمه ونعمته على آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن كان منهم أول من استجاب للنبي صلى الله عليه وصَدَّقَهُ وهاجر معه وجاهد على أمره، فكانت له الولاية في الرحم والولاية في الدين، ولم يأخذ عليه أحد بفضل ولايته في الدين، وأخذ على الناس بفضل ولايته في الرحم، مع الولاية في الدين. في كتاب الله جل ثناؤه.

فمن قال: إن أولئك ذهبوا وإنما أنتم أبناؤهم فليس لكم فضل بآبائكم؟ فانظر في آي القرآن، أرأيت حين بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وسمى بني إسرائيل أهل الكتاب في كثير من آي القرآن فقال عز وجل: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾[آل عمران: ٦٤]، وقال عز وجل: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران: ٢٠]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] أفرأيت بني إسرائيل حين سماهم الله تعالى أهل الكتاب على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد اختلف أهل الكتاب ، والذين أوتوا الكتاب هم الذين اتبعوا موسى صلى الله عليه وأبناؤهم، فإن عرفت أنهم أبناؤهم فما منعك أن تعرف من أنه قد ثبت لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنهم هم أهل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل الكتاب؟ كما ثبت ذلك لبني إسرائيل قال الله عز وجل: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[الأنفال: ٧٥] فقد عرفت هذه الأمة أنّا أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذريته لأن الله جل ثناؤه لم يفرق بين النبوة والكتاب أن جعله في أحد من ذرية إبراهيم، قال الله جل ثناؤه لإبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ

وَالْكِتَابَ﴾[العنكبوت: ٢٧]، فكيف يفرقون بين من لم يفرق الله بينه فقال تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا(٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[النساء: ٥٤ ــ ٥٥]، فليس أحد أولى بإبراهيم من محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم، ولا أولى بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم منا، قال الله جل ثناؤه: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[الحج: ٧٨]، وليس كل هذه الأمة بني إبراهيم، قال الله عز وجل لبني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الجاثية: ١٦]، وقال موسى لقومه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة: ٢٠] في زمنهم الذي كانوا فيه، وقال محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾[الأنبياء: ٢٤] فقد ذكر الله عز وجل أمرهم وأمرنا في الكتاب.

[الدليل على ملازمة أهل البيت للقرآن]

فإن قلت: إن الله جعل الكتاب الذي بعث به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للناس وهدى، فبذلك يريد جهال هذه الأمة أن يؤخرونا عنه، فإنه قد قال عز وجل في التوراة والإنجيل مثلما قال في القرآن، قال: يامحمد ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(٣)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ٣ ــ ٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص: ٤٣].

وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[هود: ١٧].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾[الأنعام: ٩١]، فجعل الله تبارك وتعالى الكتب التي أنزلها كلها هدى للناس، وجعل لها من ذرية إبراهيم أهلاً، أتعرفون ذلك لبني إسرائيل، ولا تعرفونه لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟!

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾[المائدة: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[المائدة: ٤٤]، ثم قال لنبيكم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾[العنكبوت: ٤٧].

ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: ١٢١] فَمَن أمته الذين يتلونه حق تلاوته؟ وهذه الأمة تختلف في تلاوته ويقتل بعضهم بعضاً عليه.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:٩]، ثم قال تعالى للذين آمنوا: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥)وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[المائدة: ٥٥ ــ ٥٦] فآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالمتولي الذي أنزل الله من البر.

والكتاب بيننا وبين من جحدنا حقنا وبغى علينا، وبين من يخالفنا فوضعنا على غير حدنا، وقال فينا غير ماتقول في أنفسنا، ومن برئ منا برئنا منه، ومن تولانا على ماوصفنا من الحق توليناه من أهل هذه القبلة.

قال الله عز وجل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١٩٤]، فلا عدو أعدى ممن اعتدى على أقوام من أهل بيت نبيكم وذريته، وهم متبعون له ومتمسكون بالكتاب الذي جاء به، حسبنا الله ونعم الوكيل. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: ٣].

[تم بحمد الله كتاب الصفوة]

ونسأل الله الذي دلنا على هذا الكتاب أن يجعلنا به موقنين، آمين اللهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً.

قال في الأصل: انتهى قراءةً على سيدي عماد الإسلام والمسلمين يحيى بن الحسين بن أمير المؤمنين حماه الله تعالى وأبقاه، يوم الأحد / تاسع عشر/ شهر شعبان / سنة ١٠٧٧هـ.

كتاب مدح القلّة وذم الكثرة

بسم الله الرحمن الرحيم

[سند الكتاب]

قال الإمام المرشد بالله عليه السلام في الأمالي الإثنينية:

أخبرنا أبو القاسم علي بن محمد بن حاجب قراءة عليه، قال: حدثنا محمد بن الحسين الأشناني، قال: حدثنا إسماعيل بن إسحاق بن راشد الراشدي، وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن علي بن عمر الكوفي، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن العباس بن الوليد المقانعي، قالا: حدثنا إسماعيل بن إسحاق بن راشد، قال: حدثنا العباس بن الفضل الوراق، قال: حدثني عمرو بن عبد الغفار الفقيمي البصري، قال: حدثنا عطاء بن مسلم الخفاف، عن خالد بن صفوان بن الأهتم التميمي.

[لقاء خالد بن صفوان بالإمام زيد في الرصافة]

قال خالد بن صفوان: قدم علينا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الرصافة رصافة هشام[1] فبلغني فصاحته، وكثرة علمه، وبيان حجته، فدخلت عليه وهو متكئ وبين يديه حنطة مَقْلُوّة يقضم منها، فسلمت عليه.

فحمدت الله تعالى وأثنيت عليه، وذكرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما أكرمه الله تعالى به، وذكرت حيث توفاه الله تعالى فبايع الناسُ أبا بكر،

(١) ـ الرصافة: بضم أوله مشهور، إن لم يكن اشتقاقه من الرصف وهو ضم الشيء إلى الشيء كما يرصف البناء فلا أدري ما اشتقاقه. ورصافة هشام موضع في غربي الرقة بينهما أربعة فراسخ على طريق البرية، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام، وكان يسكنها في الصيف. هكذا في معجم البلدان ٣/٤٦ ـ ٤٧.